صراحة الدكاترة: غلطة جماهيرية!

أنيس منصور

في الاقتصاد كما في الطب هناك نظريتان: إحداهما أن تصارح المريض بمرضه. والأخرى أن تصارح أهل المريض وتخفي ذلك عن المريض نفسه.

ومصارحة المريض هي جزء من المصارحة العامة.. يجب أن يعرف حتى لو أدى ذلك الى تحطيم حالته المعنوية. إني لن أنسى ما قاله لي طبيب بتج في مستشفى جارهن سبنسر: تمنيت أن أقتله في اللحظة التي أخبرته فيها أنه لا أمل؛ وأن والدتي ستموت. وأنه من الأفضل أن أوفر آلامي على نفسي.. فلماذا أهم من الميت!

هذه صراحة رهيبة. ولكن الطبيب قال الحق.. حتى الموت.

ورأي آخر يقول: إن الطبيب لا يفقد الأمل. ولهذا يجب عليه أن يخفي عن المريض، فما دام المريض يتنفس.. وما دام يظن اليك وأنت تتحدث إليه فمعنى ذلك أن عقله يعمل.. وأن قلبه يعمل وأنه ما يزال على قيد الحياة. وما دام على قيد الحياة أمل.. ثم إن الطب لا يعرف كل أسرار الجسم الانساني. فقد حدثت معجزات كثيرة..

وحتى إذا كانت هناك حالات كثيرة ميئوس منها تماما، والمريض يتعذب فلا يحق للطبيب أن ينهي عذاب المريض بالقضاء عليه. بل لا بد من موافقة أهل المريض على ذلك.

وفي الاقتصاد: ما الذي يمكن أن يقال عن الميزانية المريضة؟

مصر مدينة من عشرين عاما. والديون بفوائد. والفوائد تتراكم. وأرصدتنا لا تطعمنا. وأمازوننا لا يسقينا. وبذلك فنحن نشتري من الخارج كل شيء. أي أننا نعيش حياة مستوردة من أول الرغيف حتى آخر ملعقة سكر في كوب الشاي. أظن أن الكوب نفسها صناعة محلية!

ثم إننا نزايد كل ستة مليون مواطن رضيع.. وهذا الرضيع له كل حقوق المواطنين الكبار في الطعام والشراب والملابس في الاتوبيس والنوم على سرير في مستشفى والجلوس في المدرسة والمشي على شوارع مرصوفة ومضاءة. إننا في حالة حرب. لأن أرضنا محتلة: أرضنا المصرية والعربية والفلسطينية.

والرضيع يحتاج إلى أموال كثيرة جدا.

والأسلحة مثل موضات السيدات، تتغير كل سنة. وكل سلاح له سلاح مضاد. ولا بد من أن نشتريه.. وأعظم تجارة في العالم هي تجارة السلاح الروسي والأمريكي والفرنسي والانجليزي. ونحن لا نستطيع أن ندفع كل ذلك. وإنما على سبيل الصفقة الفنية أن تساعدنا. وهي في ذلك تساعد القضية العربية. فلولا أن هناك دولا تدافع ودولا تدفع، لاحتلت إسرائيل كل الأرض العربية.. ولتحولنا بسهولة إلى هنود حمر في هذه المنطقة. لأن العرب يتفقون أموالهم على بطونهم.

بصراحة أكثر ينفقون أموالهم على الرقيق الأبيض.

وبصراحة أكثر: إن بعض الأغنياء لا يستحقون هذا الثراء. لأنهم لا يعرفون كيف ينفقونه. ولذلك يتولى عنهم الإنفاق حاشرة في أمريكا وبريطانيا واليابان.

ثم إن حرب أكتوبر قد رفعت سعر البترول.. وجعلت الذهب الأسود يقف على حيله أي يتحول من بحيرة الى جبل من الذهب.. والجبل ذهب يتراكم ويتزايد من تلقاء نفسه، مهما أخذنا منه فإنه لا يتحرك..

وأشفقنا دفعوا الكثير. ولكن القضية لم تحل بعد. ولا بد أن يعاونونا وإلا..

.. وإلا أشياء كثيرة جدا من الممكن أن تحدث في بلادنا وفي بلادهم. أو تحدث خارج بلادنا وخارج بلادهم وتمضي على الجميع - كالتسلل الشيوعي في الصومال والسودان وليبيا واليمن وأثيوبيا والمحاولات الشيوعية في مصر..

فما هو الحل؟

إن الأسعار في الدنيا كلها مرتفعة. ومستوى الحياة رهيب. ولا يوجد بلد في الدنيا لا يشكو من قسوة الحياة. وفي مصر أناس كثيرون جياع. وفي مصر أناس كثيرون يعيشون بصعوبة.. لأن المال لا يكفي. وكل إنسان يتمنى أن يكفيه مرتبه وينفق شيء من مرتبه يشتري به قطعة أرض ويبني عليها فيلا ويؤجرها مفروشة وما زاد عن ذلك يشتري به شقة لكل واحد من أولاده الخمسة - كل ذلك بمرتبه الشهري الذي لا يتجاوز الثلاثين جنيها؟!

كيف ذلك؟

ومن حق كل إنسان أن يكون قادرا على كل شيء. ولكن كيف ذلك؟

مسافة كبيرة جدا بين أحلام الجائعين في سوق العيش، وبين سوق العيش والأرز والسكر.. مسافة طويلة وتزداد طولا كلما تقدمت السن بالإنسان.. وفي الطريق إلى أحلامه يداخله اليأس - ولا ألومه.

ويصبح اليأس جوا عاما يتنفسه كل الناس. وعندما ييأس الناس، يصبح العلاج صعبا، فليس علاج اليائس أن نحقنه بالأمل فقط. فإن الأمل، ليس إلا وعدا بسداد دين من الديون. ولكن علاج اليائس أن نعطيه..

ولكن الدولة لا تستطيع أن تعطي كل إنسان إلا بقدر ما يعمل. ونحن دولة نامية. أو أقل من ذلك، ولا بد أن نفرق فالذي يعمل بجد. والذي يجهد محدود، مادام موظفا أميريا و ٩٠٪ منا موظفون محدودو الدخل.

أي أننا أناس فلوسهم لا تزيد ويدفعون الضرائب ويستحيل عليهم أن يتهربوا منها. ثم يتفرجون على أثرياء يكسبون كثيرا ويتهربون من الضرائب أكثر. والذين يستفيدون بكل ما تقدمه الدولة من خدمات هم الذين لا يدفعون الضرائب. وإذا دفعوا لم ترهقهم. أما نحن الذين ندفع الضرائب، فنحن أيضا الذين نعاني من سوء الخدمات ونشكو من ارتفاع الأسعار.

فكيف تواجه الدولة هذا المرض، أو هؤلاء المرضى بجيوبهم - مع ملاحظة أن الدولة أيضا أكثر مرضا من الناس.. أي أن الدولة وهي الطبيب، تعاني أكثر مما يعاني المرضى أي الشعب. فالشعب مريض والدولة أيضا؟

نعود الى وجهتي النظر في مصارحة المريض: فالدولة يجب أن تصارح الناس. لكي تتعاون مع الناس في علاج هذه الحالة، حالة الشعب وحالة الحكومة.

هل تقول للناس: لا داعي للكماليات؟ ممكن أن يقال ذلك بشرط أن ترفع أسعار الكماليات تماما. وبشرط أن تحدد بالضبط ما هي الكماليات؟ ومن المؤكد أن الرغيف والشاي والأرز والسكر والفول والعدس والكيروسين والبوتاجاز ليست من الكماليات.

أما السجائر فمن الكماليات. وكل بلاد العالم عندما تريد المزيد من الضرائب فإنها تبدأ بالسجائر أو الخمور أو غيرها.

ولكن يجب أن تكون الدولة قاطعة في هذا الذي تفعله بحيث يقع القانون على الجميع دون تمييز أو دون تفرقة..

ومن الممكن أن تعلن الدولة سياسة «التقشف»..

كثير من الدول فعلت ذلك في أثناء الحروب وبعدها بشرط أن يكون التقشف عاما، أي أن تبدأ الدولة بأجهزتها ثم جميع الناس.

ولكن الدول تخاف من كلمة «التقشف».. لأن الناس يتوقعون نوعا من التفريج المستمر. فإذا طالبتهم الدولة بالتضييق ضاقوا بها..

ثم إن الحكومات تجيء بعد انتخابات شاقة، تبذل فيها الوعود للناس. ومن بين هذه الوعود أن تحقق للناس آمالهم وأحلامهم وأن تخفف عنهم. فإذا جاءت وطالبت بالتضييق عليهم، كان ذلك خداعا للشعب.. ونكثا من الوعود، وصدمة عنيفة لثقة الناس في الذين انتخبوهم لمجلس الشعب، أو أتوا بهم الى الحكم.

ولكن الناس من الممكن أن يحتملوا التقشف اذا كان عاما . أى أن المساواة فى التقشف عدل . ولكن الذى يوجع قلوب الناس وقلوبهم أن يجدوا تقشفا هنا ، وإسرافا هناك . تطالبهم بأن يمسكوا أيديهم ، بينما نحن نطلق أيدى فئة أخرى من الناس . .

فهل الحكومة صارحت الشعب بحقيقة الوضع الاقتصادى وسوء الأحوال المالية فى مصر ؟

إن الحكومة قد أعلنت أن هناك عجزا هائلا فى الميزانية . أن هذا العجز لا يمكن أن يقضى عنه إلا بأن نقترض وأن نرهن أن تجمع الدولة المزيد من الضرائب . وأن ترفع يدها عن كثير من السلع التى تساندها الدولة . . هل قالت الدولة ذلك ؟ نعم قالت ذلك .

هل الدولة واجهت الناس بصراحة تامة بهذه الأوضاع ؟

لم .

هل انتشرت هذه الصراحة على أوسع قواعدها الشعبية . المكروفون والشاشة والصحيفة ؟

لا أظن أن الدولة فعلت ذلك بدرجة كافية . فإننا نعلم أن حالة المالية سيئة . وأنها سوف تظل كذلك . مادامت الأسعار العالمية عالية . ومادامت أموال كثيرة تذهب لتسليح الجيش على حساب التنمية ومع دائم تدهتنا بتزايد .

ومع دخلنا لا تعمل بدرجة كافية . لأنه من الضرورى أن ننتج حتى لا نشترى كل شىء من الخارج . وحتى لا تدفع الدولة الكثير جدا من الأجور فى مقابل القليل جدا من العمل الذى تؤديه ؟

إن د . القيسونى وجماعة الاقتصاديين ، أطباء صارحوا المريض بأنه لا علاج له إلا اذا ضربوه على رأسه . ومعنى ذلك أن « داء » المريض ليس كافيا . ولذلك كان لا بد أن يعالجوه على مرحلتين فأعطوا هذه القرارات مرة واحدة . فسأق المريض من طريقة الإعلان . ومن المفاجأة . لأن المريض - أصلا - قد ضاق بكثير من متاعبه اليومية : المرتب والمواصلات والسكن وارتفاع الأسعار . إن الناس فى ضيق ومن . وليس لديهم أى استعداد لأن يعانوهم أحد على ذلك . إنها الشعوب كالأطفال يتوقعون المعجزات من آبائهم . الحكومة هى الأب والأم للشعب . صحيح أن الشدة مطلوبة . ولكن ليست هذه هى الشدة . وإنما هذه هى القسوة الفاجرة !

إن الذى أعلنه د. القيسونى وجماعته صحيح علميا . ولكنه عنيف إنسانيا واجتماعيا .

فهل كان الواجب أن يكذب على الناس ؟ انها خيانة للأمانة أن يفعل ذلك . ولكن واجبه بطالبه فقط أن يقول كلمة الحق على درجات . . أو أن يمهد لها . فلا لوم عليه إذا قال . ولكن اللوم عليه أن لم يقل الحق بصورة تدريجية . ان د. القيسونى وجماعته علماء اقتصاديون . ولكن ليسوا سياسيين . ولذلك كان من الضرورى أن يتولى الحزب الحاكم « تسييس » هذه الفلسفة الاقتصادية . أو هذه الإجراءات العنيفة . أو هذه الإجراءات غير المتوازنة . لأنها وضعت السجائر والبوتاجاز مع الرغيف فى ميزان واحد . . أو على كفتين متعادلتين من ميزان واحد . .

لقد رأيت فى سنة ١٩٥٩ إجراء مشابها ، ولنفس السبب ، فى أندونيسيا . فقد أعلن سوكارنو فى أغسطس من ذلك العام إلغاء الورقة ذات المائة روبية . وفى ذلك اليوم كنت قد مررت شيكا بمائتى جنيه ولم أكد أخرج من باب البنك حتى وجدت أن الذى أعطانى فى جيبى لا يساوى وزنه ترابا . وكانت حجة سوكارنو انه اذا لم يفعل ذلك مرة واحدة نهبت الأموال كلها الى الخارج . وخصوصا أن أندونيسيا ثلاثة آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها . ولا يمكن مكافحة التهريب منها واليها . وهذا ما دفع د . القيسونى وجماعته الى أن يعطوا اجراءاتهم فجأة . فقد خشى إن هو هيأ الأذهان لذلك القرار . أن تتكدس البضائع عند بعض الناس ، فيرفعوا أسعارها على ملايين المستهلكين .

إنه الخوف من اللصوص هو الذى دفعه الى معاقبة اللصوص والأبرياء فى وقت واحد .

ولكن رفع الأسعار بهذه الصورة العنيفة . هو الذى يستحق المؤاخذة . فقد كان من الضرورى التمهيد لذلك فى الحزب الحاكم . . وفى مجلس الشعب ، وفى الصحف ليشارك الناس ، وليستعدوا نفسيا لشىء من ذلك .

وهذا الذى جعل الرئيس السادات يصحح هذا الوضع الشاذ . أو الوضع المقلوب فيعيد كل شىء الى الحزب والى مجلس الشعب . .

وقد حدث فى بريطانيا فى الشهر الماضى . أن ظل الناس يتوقعون ويناقشون فى الصحف زيادة الأسعار . . حتى جاءت الحكومة وأعلنت فى مجلس العموم ضرورة رفع الأسعار عن المكولات والمشروبات وقد شاهدت هذه المناقشات فى مجلس العموم وفى التلفزيون . وتقرر ذلك . والجه الناس الى حياتهم العادية يديرون أنفسهم لمواجهة هذا التكشف الجديد . .

ومن الواجب على الدولة وعلينا ان نصارح الشعب بأن الذين يدفعون لنا الأموال : قروضا أو منحا سواء كانوا حكومات شقيقة أو صديقة أو بنوكا يسألون : أين تذهب كل هذه الفلوس ؟ هل تضيع على الكماليات ؟ هل تنفقها مصر على الضروريات ؟

فلا بد أن نكون جادين فى مواجهة هذا الموقف الخطير . .

ولو كان السلام قد تحقق فى الشرق الأوسط ، لطالبنا بتخفيض القوات المسلحة والتسليح . . ولكن السلام لم يتحقق بل إن الطريق الى جنيف ما يزال صعبا جدا ومن الممكن أن تتفجر الحرب فى أية لحظة . ولا يزال السلاح ضروريا . واذا كان السلاح ضروريا فثلث الملايين من الجنيهات مطلوبة سنويا للتسليح . .

إلا اذا استطعنا أن نفصل ميزانية التسليح عن الميزانية العامة . وتكفلت الدول الشقيقة بالانفاق على التسليح كله عاما بعد عام .

ولذلك يستحيل علينا أن نكون فى حالة استرخاء عسكرى . .

والدكتور القيسونى وجماعته قد اختاروا موقفا صعبا . . فهم الآن يحتاجون الى من « يبرر » لهم هذه الإجراءات . . بدلا من أن يجدوا من « يفسر » للناس هذه الإجراءات . .

وكان الأصح أن يجدوا من « يمهد » لهذه الإجراءات . .

إن السياسة المفصولة هى التى تقوم على مصارحة الناس بالحقيقة . . ولكن بشرط أن تجىء هذه الحقيقة بالتدريج . . وقديما قالوا : إن الحقيقة جاءت الى الناس عارية . فاستنكروا ذلك منها . . فاختفت وارتدت أجمل ملابسها . فاقبل الناس عليها . .

فليس المطلوب أن يكذب علينا كالكثرة الاقتصاد وانما فقط ان يغطوا عوراتهم وان يمهدوا لاجراءاتهم حتى لا يساء فهم كل شىء . وسوء الفهم وسوء الظن هواء يتنفسه الناس المرهقون المعذبون فى الأرض وفى كل زمان . .

وأنا لا أطلب من د . القيسونى ولا أى رجل آخر من علماء الاقتصاد أن يكون عمر الشريف ، له نظرات ولمسات وهمسات . . ولكنه استاذ لا يحسن مواجهة الناس ، وليست هذه صناعته . . ولذلك فقد أثار الناس أكثر مما طمأنهم وراع بعضهم بنفسه وبيدونه ونعومته كأن الأمر لا يعنيه . . مع أن الأمر يعنيه جدا . . ولكن لا هو الوجه ولا الصوت ولا الأسلوب الجماهيرى . . وهى ليست غلطته . لا تسيئوا فى ذلك .

فما الذى حدث فى مصر ؟

سخط عام . الناس خرجوا الى الشوارع . . خرجوا من ملابسهم وراحوا يهتفون ويتظاهرون ويخربون . . يهددون الممتلكات الخاصة والعامة . لماذا ؟ لأنهم فى حالة غضب .

ولكن الذين يخربون لمصر وسلامة مصر وسلام الشرق الأوسط هم الذين ظهروا من تحت الأرض ومن تحت البحار الشيوعى ليركبوا دخان التخريب وألسنة النيران . لماذا ؟

لأن مصر تسعى من أجل السلام . وتتزعم حملة السلام والشيوعيون لا يريدون السلام . لأن السلام معناه رخاء مصر واستقلالها . وهم لا يريدون لمصر رخاء أو استقلالا . وانما يريدون لها الخراب الذى يجعلها تسقط تحت أقدامهم . إن الشيوعيين لا يريدون السلام ولا العدل فى هذه المنطقة . وانما يتربصون بكل الأنظمة الوطنية ويوالون عليها السباطين والمخربين بين البسطاء والصغار . .

فالذى يجرى فى القاهرة والاسكندرية وغيرها ليس إلا ما يجرره . . ولكن خراب مصر وتلطيخ صورتها ، وتعطيل دورها . هو الذى يهم العملاء من الخونة - مع الأسف !

هل هى غلطة أن تكون فى مصر حريات ؟

هل هى غلطة أن تكون هناك أحزاب ، من بينها حزب شيوعى ؟

هل يجب أن يندم أنور السادات على أنه جمع بحرية الرأى وحرية الاختلاف من أجل مصر ؟ هل عليه أن يندم لأن الخلاف أدى الى الصراع ؟

لقد كتبت هنا من أسابيع أقول : أننا يجب ألا نجعل رجلا مثل أنور السادات ، يندم على أنه جمع بحرية الرأى وتنظيم الآراء وتنظيم الاختلاف والمعارضة ، وإن هذه تجربة رفيعة يجب أن نصونها . . وانه اذا حدثت اخطاء فيمكن تلافيها بالصورة الشرعية . .

فما الذى يريده الشيوعيون أكثر من أن يكون لهم حزب . واذا طالبوا من الشعب أن يختارهم ، لم يختر أحدا . لقد أوهموا الجماهير انهم كثيرون . والحقيقة انهم ليسوا كذلك . ولكنهم لا يفضلون أن يعملوا فى النور . واذا أن يعملوا فى النار والدخان وفى الليل وتحت الأرض . .

واذا لم نكن نعرف ما الذى يمكن ان يفعلوه . فقد عرفنا . واذا كنا ، مع الفرحة بالحرية والدعوة للسلام ، قد نسينا ذلك . . فقد تذكرنا اليوم كل شىء وبصورة عنيفة .

وهى تجربة عنيفة . ومحنة لن تعود . .

واذا كان أشقاؤنا فى شك فيما يمكن أن يفعله الشيوعيون فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية ، فهذه صورة صارخة دامية .

واذا كنا قد تركنا عدونا فى إسرائيل ، فان هناك من هم أسوأ وأشد عداوة من اسرائيل . . بيننا فى مصر وفى غيرها وربما فى غيرها من البلاد الشقيقة أكثر . .

وما حدث هو مؤشر خطير يدل على أن النار تحت الرماد . وانه يكفى أن يهب على الرماد هواء غضب أو سخط ، لتتفتح علينا عيون النار . .

فيا أيها العرب فى كل مكان انتبهوا : ماذا يجرى حول السودان وفى ليبيا وفى اليمن وفى الصومال وأثيوبيا والخليج . . وأخيرا فى مظاهرات مصر . فلا تتفرجوا علينا . . لأن النار ليست بعيدة عن أبوابكم !